المصـــــدر : الوطن السعودية

التـــاريخ : 01-06-2006 العـــدد : 2071

الصفحـات : 20 المسلسل : 140

نحن في مخاض.. سهلوا الولادة

واجه الملك المؤسس، عبدالعزيز، فتنة فكرية اجتماعية، ذات طابع مسلح، طالت شريحة من مجتمعه، وأدرك بفطرة سليمة، وحسّ سياسي، أنه لا سبيل له لمواجهة الفتنة، إلا عبر ما يسمى بلغة الساسة (الإجماع الوطني)، فدعا إلى سلسلة (مؤتمرات وطنية)، شملت العلماء والأعيان والتجار ورموز الحاضرة، واستطاع عبر هذه الآلية القضاء على تلك الفتنة، بإجماع وطني نادر، فحافظ على كيان بذل في تأسيسه ما بذل، من الدم والجهد والتضحيات.

ثم مرّ الوطن بأزمة مماثلة، في عهدي الملك سعود وفيصل، عندما شعر الأخير، أنه لكي يحافظ على هذا الكيان من التهديدات الداخلية والخارجية، المحدقة به – آنذاك، كان لزاماً عليه أن يحزم أمره، عبر تعبئة إجماع وطني، يُبقي على تماسك المجتمع، من خلال برنامجه الإصلاحي الشهير ذي النقاط الـ10 وغيره، الذي طال أموراً ومسائل في غاية التعقيد الاجتماعي والديني، بمقاييس ذلك العصر، (تعليم المرأة، الرّق، التلفزيون)، ولكنها كانت مغامرة سياسية محسوبة، وضعت المجتمع على مسار حضاري وتنموي، ما زلنا ننعم بثمراته حتى الآن، بل وشاع الارتياح بالشارع السعودي، أقرب ما يكون لمشاعر (عام الجماعة)، كما صورتها لنا كتب التاريخ الإسلامي.

ما كان لهذين الزعيمين أن يمضيا في بياب (الأزمة)، ويعبرا بالمجتمع إلى برّ الأمان، إلا بما أظهراه من زعامة وشجاعة في المواجهة، كانت الدولة، ممثلة في الحاكم، (طرفاً) أساسياً في حسمها، من أجل الصالح العام، ورعاية لمصالح الدولة العليا، واستقرار المجتمع.

ثم مرّت (فُتينات) هنا وهناك، في عهدي الملك خالد وفهد، مثل (التحديث)، و(الحرم)، و(الاستعانة) بالقوات الأجنبية.. وكان الحزم واللزم والعزم عنوانات مواجهتها، سعياً لحماية (الحد الأدنى) من المشترك لما (تواضعنا) عليه كمجتمع سعودي، و(ارتضينا) أن نعيش أفراداً في ظلال دوحته، حتى لو اختلفنا معه في بعض التفاصيل.

هكذا هي المجتمعات، وهكذا هي الدول، لا يمكن أن تنمو وتزدهر، وتتجنب الفتن إلا بـ(أجندة وطنية)، ومشروع وطني شامل، يعبر عن واقع وطموحات وآمال (السواد الأعظم) من المجتمع، وليس أجندات (أقليات صاخبة) منظمة، ذات شبكات واسعة، مترابطة، وذات مصالح مشتركة، تستثمر موارد المجتمع وآلياته ومؤسساته، بغفوة أو غفلة من عين.

إن من يطلع على (الغثاء الإلكتروني) في الساحات (الإنترنتية)، وموضة البيانات الموقعة، ويغشى المجالس العامة والخاصة، ويستمع لبعض الفتاوى والخطب، وجلسات الوعظ، وبعض المناسبات الثقافية، والفعاليات ذات الصفة الجماهيرية، فضلاً عما يكتب في الصحافة.. من قُدر له التعرض لهذا السيل العرم، بصفته مراقباً ومحللاً أو طرفاً، فلا بد أن يصل إلى قناعة بأننا على شفا (شيء).. هو في أفضل الأحوال – حراك مضطرب، غير منضبط، لا يُدير دفته أحد، لا يهندسه أحد، ولا يُوثق وثاقه أحد.

وياليت الأمر يطال سجالاً أكاديمياً، أو فكراً نخبوياً، تقتصر آثاره على المعنيين به، أو المشتغلين عليه، لهان الأمر، وقلنا هذا (ترف) أكاديمي.. الأمر يتجاوز ذلك بكثير.. إنه يطال جوهر وجود المجتمع، ويمس قواعد استقراره، وحركته وديناميكيته، وحيويته، وآليات عمله، ومعايير الأداء فيه، وقيم السلوك المرعية بين أفراده.. أي موجهات السلوك والمشاعر والمعتقدات.. ما هو الصح؟ وما هو الخطأ؟ وما هو المشروع، وما هو غير المشروع؟ وما هو الحلال، وما هو الحرام؟ وما هو المقبول، وما هو غير المقبول؟ وما هو المعتدل، وما هو الشطط؟ وما هو الواقعي، وما هو الخيالي؟ وكيف يتبين للفرد الخيط الأبيض من الأسود؟

إنه ببساطة البحث عن (معادلة)، للكيفية التي يعيش بها السعودي في مجتمعه، في القرن الـ21، دون أن يكون عرضة لنقد، أو توجيه اتهام، أو محاولة تصنيف، أو محاكمة نوايا، أو تشكيك في ولاء أو ذمة، أو تهمة فسق وتكفير، أو تقريع من مسؤول.. وفي الوقت نفسه يستطيع هذا السعودي أن يحيا، مثل كل شعوب العالم، حياة مستقرة هادئة متوازنة، فيها قدر من الحرية المنضبطة، والاختيارات الشخصية، والتعبير عن الذات.. كل ذلك في سياق ديني واجتماعي وقيمي وسطي، يمثل (المشترك) بما ترتضيه الغالبية من عقلاء المجتمع، وأغلبيته (الصامتة).. هكذا يسود السلام الاجتماعي. ولنأخذ بعض الأمثلة.. إذ تأتي (المرأة) نقاباً، وحجاباً، وقيادة سيارة، وعملاً، وتعليماً، واختلاطاً، في جوهر هذا المخاض، الذي اصطدم بأكبر وأعظم سدّ في العالم، (سد الذرائع).. فتش عن المرأة! من الرهاب إلى الوسواس.. فالحجاب والنقاب، وهيئة اللباس – مثلاً – جعلت من المرأة السعودية أكثر نساء العالم الإسلامي (تناقضاً) في التعامل معها، فهي تلبس لأسرتها شيئاً، ولأسرة زوجها شيئاً آخر،

> الأسلم أن تعهد الدولة لساسة المجتمع وعلمائه من المشهود لهم بالولاء والتوازن والوسطية وسعة الأفق، ببلورة رؤية وطنية واضحة المعالم في جملة من القضايا ذات المساس بالشأن العام...

وللداخل شيئاً، وللخارج شيئاً! وهي نفس المرأة، وأحياناً لا يفصل عن الانتقال من هيئة لباس إلى أخرى إلا سويعات، (الرحلات الدولية – مثالاً).. بينما المرأة المسلمة في العالم الإسلامي تتمسك بهيئة (واحدة) في كل زمان ومكان!

ناهيك عن قيادة السيارة، التي تحولت – بقدرة قادر – من قضية دينية بالأمس القريب، إلى مجرد قضية اجتماعية، ينتظر المؤيدون أن يُفسح (الجمل) قريباً لبنت المدينة (النقلة) من سنامه إلى مقود (أبو عراوي).

وخذ عمل المرأة، الذي عندما كان (ضرورة) للرجل، لم يجد – هو ذات الرجل – غضاضة في عمل المرأة، طوال اليوم في الحقل على اتساعه، أو الاحتطاب بالصحراء بعيداً عن المضارب، أو حلب الأبقار في المزارع، أو الرعي بالأغنام في الوديان والسهول، أو البيع في السوق الشعبي للرجال والنساء، دون (ضوابط) وزارة العمل، أو استقبال الضيوف والأغراب في المنزل، و(تعزيبهم)، أو العناية بإخوان الزوج وخدمتهم بشكل مباشر.. كل ذلك بعيداً عن أعين الرقيب (الرسمي) وغير الرسمي، ومع ذلك كان (العفاف) سيد الموقف.. حتى أولئك الذين يعارضون عمل المرأة تجدهم الأكثر حرصاً على استخدام كل وسيلة، مشروعة أو غير مشروعة، للبحث عن وظائف لبناتهم.. حتى لو تطلب الأمر ترددهن مئات الكيلومترات (مسافة قصر) يومياً، ومع

المصـــــدر : الوطن السعودية
التـــاريخ : 01-06-2006 العـــدد : 2071
الصفحـات : 20 المسلسل : 140

يوسف أحمد العثيمين*

سائق أجنبي، وبسيارة وطريق غير آمنين!

ويالبت المعارضين يعلمون معاناة آلاف النساء الفقيرات، اللاتي ليس لديهن (رفاهية) رفض أي عمل يُعرض عليهن.. وإذا كنا حريصين على (عفاف) النساء، فليس عبر الحرمان من فرص العمل الشريف (أمام الله وخلقه)، ودفعهن للتسول والضمان الاجتماعي، وربما لأمور شائنة.

ثم عرج على الفكر، وحرية التعبير، لتشنف الآذان بتصنيفات ما أنزل الله بها من سلطان.. فهذا (علماني)، وذاك (ليبرالي)، وهذا (سروري)، وأنا (جامي)، وأنت (صحوي)، وغيري (صوفي)، أو (سلفي تقليدي)، وذاك (عالم سلطة)، بينما شيخي (عالم ملّة)، وهذا (إسلامي)، وذاك (إسلاموي)، وذيّاك (إخواني – قطبي)..

أين نحن من آبائنا (المحمض والزكرتي)، عندما كانوا يواظبون على الصلوات المكتوبة في المسجد بانتظام، ومع ذلك يتناسلون، ويضحكون، ويمرحون، ويسرحون، ويلعبون (الورق)، ويستمعون للراديو (الست)، ويشاهدون المسلسلات (وضحى وبن عجلان)، ويطربون لـ(المزمار)، ولـ(السامري)، والـ(ناقوز)، والأهازيج الشعبية من مختلف مناطق المملكة.. فضلاً عن السفر للخارج، وربما يمارسون بعض (الأمور) كالتدخين، وخلافه من مظاهر الضعف الإنساني، ولكن كل ذلك بتوازن إنساني فريد.

وإذا ما أربت مثالاً ثالثاً، فتابع الجدل بين (سعد وسعيد) حول المجتمع المدني، لترى كيف يتشوش الفكر، وتتداخل المصطلحات، ويتحول الأمر إلى سجال عاطفي، وحوار (طرشان)، ومسابقات جمال، أو هجن، أو ملاكمة، يصفق المجتمع لمن يحظى بالضربة القاضية.

وأختم بما حصل في معرض الكتاب الدولي هذا العام، في الرياض، عندما تشابكت الأيدي، والتقت الساق بالساق، وغُلقت الأبواب، وقيل هيت لك.. وأصبح المعرض (علامة صغرى) من علامات الساعة، حيث كثر (الهرج والمرج).. لا تنس – يا رعاك الله – أن هذا معرض الكتاب الدولي، أي قمة الرقي والحضارة، وخصوبة الممارسة الفكرية، وحرية التعبير والرأي.. هزلت!

هذه مجرد لوحات (منتقاة) من المخاض الذي نمر به.. وهو مخاض صحي بامتياز، لو كان يُعبر عن حراك اجتماعي وثقافي وفكري، يتم بين فرق متكافئة الفرص، محكوم بآداب الحوار، وحق الاختلاف، و(سلوم) النقاش، ويعبر عن حالة تفكيك واعية، وإعادة صياغة واعدة، لمجتمع أفضل، (متصالح) مع نفسه، ومع الآخر، ومع العالم من حوله.

الإشكالية أن المجتمع – الآن – في حالة اشتباك دائم مع نفسه، والدولة لم تدخل لاعباً أساسياً في إدارته أو حسمه بعد، ربما رغبة أن يكون (البقاء للأصلح)، من هذه التيارات والاتجاهات.. ولكن الخطورة أن هذه (التجاذبات) تمس (الصمغ الاجتماعي) الذي يمسك وحدات المجتمع من أن تسقط على رؤوس أفراده، فتهلكهم جميعاً. أظن أن الأسلم أن تعهد الدولة لساسة المجتمع وعلمائه وعقلائه، من المشهود لهم بالولاء والتوازن والوسطية وسعة الأفق، بلورة رؤية وطنية واضحة المعالم، توضح حدود ما سوف تسمح به الدولة، في جملة من القضايا ذات المساس بالشأن العام، التي هي موضع تجاذب واحتكاك بين فئات المجتمع، من أجل أن يطمئن المواطن البسيط على مستقبله وأمنه واستقراره النفسي، ويُعيد له التوازن، في هذا البحر المتلاطم، وليكون (هو نفسه) الداعم الرئيس لهذه (الأجندة الجديدة)، في حالة تبني الدولة لها كسياسة معلنة.

---

* كاتب سعودي